واستنجدت الهواء فمدّ لها الهواء بساطه . واستدفأت الشمس فغمرتها الشمس بأنوارها . كان الربيع فبنت أعشاشها. وباضت ونقّرت وأنمت فراخها . وجاء الصيف فلم يبقَ لها من همّ سوى الصيد ، ومن تسلية سوى التغريد . والصيد وافر فعلامَ لا تغرّد ؟

من خلال أغصان البلّوطة ، حيث الحساسين ، تتراءى لي أغصان أشجار كثيرة – أشجار بلّوط وسنديان وزعرور وبرقوق ، كلّها وَرِقٌ نضر . كلّها آهل بالعصافير . يخاصرها النسيم فتراقصه على تقاطيع الأغاريد . هاماتها تتناءى عن بصري منحدرة نحو الوادي العميق ، حيث ساقية صغيرة تكرّ جمزاً وحلجاً – من صخر إلى صخر ، ومن مرتفع إلى منخفض . الصخور عن جانبيها متراكمة كالغيوم ؛ لكنها غيوم جامدة بيضاء ، يتطاول بعضها إلى السماء فإخاله عن بعد غيمة على الأفق . بين هذه الصخور سبيل ضيق تسلكه البشر والبهائم بصعوبة وتلقى الجمال في قطعه من العذاب ألواناً . هو السبيل الواصل بين بسكنتا وزحلة .

« دِن . . . دن . . دن . . . » هذه أجراس قافلة من المكارين قادمة من زحلة . وهذا صوت صاحب البغلة الدهماء السائرة بغنج وتعزز في مقدمة القافلة :

عيونِكْ سودْ والكحله خفيّه رميتِ بضامري علّه خفيّه